

صلة اللهجات المعاصرة بالفصحى وأثرها فيها

□

مهين حاجي زاده*

فريدة شهرستاني**

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٧/٢ هـ ش

تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/٢٨ هـ ش

□

الملخص

المشكلة اللغوية في عصرنا هي أنّ العربية الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب وغير اللهجات الدارجة التي لم ترق إلى لغة المثقفين، وهي في مادتها نماذج متأخرة وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل. وشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة إلى الحد الذي كانت عليه العربية في مختلف عصورها، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواج في اللغة. وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة ولكنها متحللة من ضوابط الإعراب؛ فالمتكلمون بها يلتزمون الإسكان في صورها وهذا ما نصبوا إليه في تقريب العامية في الفصح. وهذا معناه أنّ اللهجات العامية تتعدّل وتتهذّب ويدلك الخشن فيها فيلين، ولكنها لا ولن تُغلب ويجب ألاّ تُغلب لأنّها المصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام. ومن جهة أخرى، إنّ إبدال الفصحى بالعامية عملية تهدف إلى تجزئة الأمة الواحدة إلى كيانات لغوية متباينة تعمل على إعاقة تحقيق الوحدة العربية، وتقطيع الصلات والوشائج التي تكونت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة. إذن، لا بدّ لنا أن نقبل على إتجاه يدعو إلى نوع من الملاقاة والتوحيد بين الفصحى والعامية. وهذا هو ما نحاول إلقاء الضوء عليه في هذا المقال.

الكلمات الدلّيلية: اللغة العربية، أبناء العرب، اللهجات العامية، اللغة الفصحى، التخاطب، الكتابة.

hajizadeh_tma@yahoo.com

*. أستاذة مساعدة بجامعة آذربايجان لإعداد المعلمين، إيران.

** خريجة جامعة آذربايجان لإعداد المعلمين، إيران.

المقدمة

إيماننا القوي بأنّ اللغة هي الباب الأول من كتاب المعرفة الإنسانية، وأولى الدعائم التي يرتكز عليها تفهم الناس بعضهم عن بعض، وإنّ اللغة بعد ذلك كلّه صلة بين الشعوب الناطقة بها: تقوم في التأليف بين قلوبهم، وفي توحيد مزاجهم إلى حدّ ما مقام لمحة النسب ووشائج القربى، وتسلّك في سبيل اتحاد رأيهم، وهواهم، وثقافتهم أقوم ما تسلكه الروابط الطبيعية من الطرق؛ واللغة نشاط أو سلوك اجتماعي تقوم به جماعة من الناس بهدف الاتصال والتعاون، وهي بهذا المعنى تتدخل في أشكال النشاط الاجتماعي السائدة في المجتمع. «فاللغة نظام اجتماعي فكري عرفي يشرح العلاقة الارتباطية بين الرمز والمعنى من حيث عرفيتها واطرادها، وهذه المنظمة العرفية ترمز إلى نشاط المجتمع، فوظيفتها تحقيق الوجود الاجتماعي للفرد؛ فهي الإطار الاجتماعي لأداء الفرد، وتفهم بالتأمل في الكلام الذي نقول بحسبه ونكتب بحسبه، وتوصيف اللغة عادة في كتب القواعد، المعجمات، علم البيان وفقه اللغة و...» (حسان، ١٩٧٣م: ٣٢)

فاللغة بحق سرّ الله في خلقه من بنى البشر (خرما، ١٩٧٨م: ٧٣) وهي من أعرق مظاهر الحضارة الإنسانية، بل هي أصل الحضارة، وصانعة الرقي، والتقدم فهي التي تؤلّف الحدّ الفاصل بين شعب وبين أمةٍ وأمةٍ، بل بين حضارةٍ وحضارةٍ، لأنّ الأفراد يتكلمون بلغة واحدة، لا يتفاهمون بيسر وسهولة وإنّما هم قادرون على أن يؤلّفوا مجتمعاً إنسانياً موحداً متجانساً، لأنّ اللغة هي قوام الحياة الروحية والفكرية والمادية، بها يعمق الإنسان صلته وأصالته في المجتمع الذي يولد فيه، حيث تخلق اللغة من أفراد أمة متماسكة الأصول موحدة الفروع. قد حاول علماء اللغة وغيرهم من العلماء، والفلاسفة، والمفكرين على مرّ العصور أن يسبروا غور هذه الظاهرة الفريدة العريقة في حياة البشر للكشف عن حقيقتها وكنهها. (السعران، ١٩٩٧م: ٥)

واللغة في الأصل أصوات استعملها الإنسان في عهد الفطرة ليعبر بها عن حاجاته، وإحساساته وهذه الحاجات والإحساسات تكاد تكون واحدة أو متشابهة عند الإنسان البدائي في كلّ مكان؛ فهو يبرد، ويجوع، ويفرح، ويغضب، ويتألم كغيره من بنى البشر، فكان يعرب عن هذه الحاجات والإحساسات بأصواتٍ



بسيطة، وبساطتها جعلتها تكون متشابهة عند الجميع. (الكرمي، ٢٠٠٢م: ٢)

واللغة التي سنتطرق إليها في هذا المقال هي اللغة العربية. كما نعرف «إنّ اللغة العربية هي لغة القرآن وشاء الله سبحانه أن تكون العربية لغة رسالته الخاتمة، فشرفت بالقرآن والسنة ثم خلّدت على مرّ القرون تستوعب كلّ جديد في حقول المعرفة وامتدت في الأصقاع المعمورة مع اتساع رقعة الإسلام.» (أدرشيب، ١٣٨٣ش: ٩) وبعد مجيء الإسلام ودخول أقوام من العجم في الإسلام ظهرت الحاجة لتعلم العربية، والمحافظة على سلامة اللغة العربية من التحريف... ولكن مع تقدم الأيام حلّت اللهجات العامية محل الفصحى، وأصبح لكل إقليم لهجته الخاصة به، وتطور الأمر إلى أن أصبح كل بلد له مصطلحاته التي تميزه عن غيره، وصار من السهل تمييز الشخص من خلال كلامه من أي البلاد هو، وعلى تنوع لهجات العرب إلا أن العربية الفصحى تجمعهم على تفاوت بينهم في القرب منها أو البعد عنها، فالكل يزعم أن لهجته هي الأفصح، وهي الأقرب للغة الفصحى....

وأما اللهجات العربية الحديثة فهي بعيدة كل البعد وبعضها لا يستمد ألفاظها من اللغة الأم العربية، بل من لغات أجنبية مثل الفرنسية، والإنكليزية، والإيطالية، والغريب في الأمر أن كل صاحب لهجة يتزمت للهجته ولهجة بلاده وكأن الأمر أمر لهجة أو أخرى.

أما الحديث عن صلة اللهجات العامية أو لغة العامة بالفصحى ليس وليد العصر، بل تطرّق له بعض من كتب في التاريخ والأدب في العصور الخالية، من أمثال ابن خلدون (ت ٨٠٨ ق) الذي سَمّى لغة عصره لغة الجيل، وقارن بينها وبين اللغة المضربّة، وقد أفرد في مقدّمته فصولاً للبحث في هذا الشأن، منها فصلٌ عنوانه "لغة العرب لهذا العهد لغةٌ مستقلةٌ مغايرةٌ للغة مضر وحمير" وآخر عنوانه "لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر" عالج فيها ابن خلدون مميزات لهجة عصره أو لغة جيله، كزوال الإعراب، ولزوم علامة الوقف في أواخر الكلام.

وتتفاوت العاميات في قربها من الفصحى. صحيح أنّ العاميات بجملتها قريبة من الفصحى، لكنّ هذا غير مانع أن يوجد في العامية ما يعيق إتقان الفصحى، خاصّة ما يتلقنه الإنسان في أيامه الأولى من بعض الانحرافات الصوتية، التي تجعل من العسير عليه أن يتقن أصوات الفصحى بمخارجها وصفاتها.

إننا لانستطيع أن نسمى ما يجري بين الفصحى والعاميات بأنه صراع، وإنما هو شذوذٌ، وخروجٌ عن الأصل، لا يصعب على الناظر معرفته، ولا مقاومته، ولا إصلاحه، ولا رَدَّه إلى وجه الصواب والجادة؛ لأنَّ اللغة الموحدة ما زالت حَيَّةً في الحياة الثقافية، وفي الكتابة، وفي مظاهر الرقيِّ والتقدُّم، وهي عنوان الثقافة والعلم، والحاجة إليها قائمة؛ لأنَّها من أهمِّ أسس تحقيق الهوية، غير أننا بحاجة إلى شيء من الجهد، ودعم القرار بقرارٍ سياسيّ، تتمثله قدوةٌ حَيَّةٌ ذات تأثيرٍ على الجماهير الشعبية.

ونحن إن سلمنا بوجود خصومةٍ أو صراعٍ بين العامية والفصحى فالعامية تتخذ الجهلة بالفصحى، وقليلى الخبرة بها لسانها المهاجم؛ لأنَّهم دعائها، والفصحى تتخذ لسانها المدافع من الأدباء، والبلغاء، وذوى البيان، وأصحاب العلم، والوجاهة لسانها المدافع، لأنَّهم حمائها، وكراهية من يكره الفصحى لا ترجع إلى نقص فيها، أو قصور فيها، وإنما ترجع إلى قِلَّة العلم بها، وسوء الفهم لها. ومعنى ذلك تغلب العامية لأنها أفضل، ولكن لأنَّها أسهل، فإنَّ تحصيلها لا يحتاج إلى كتابٍ ومعلِّمٍ ومدرسة، وإنما يحتاج إلى بوابٍ وخادمٍ وشارعٍ! ومعنى تغلب العامية فصل الأدب عن الدين، وقطع الحاضر عن الماضي.

والسؤال هنا هل على العرب أن يرجع إلى الحديث بالعربية الفصحى؟ أو على الأقل التقريب بين اللغة التى يتحدثها وبين الفصحى، بالتركيز على الكلمات والأساليب الفصيحة فى اللهجة، وترك ما دون ذلك؟ أم أن عليه فقط أن يستخدم العربية الفصحى باعتبارها لغة رسمية ولغة أدبية فقط؟

١. اللغة العربية وخصائصها

اللغة العربية إحدى اللغات السامية، وانشعبت هى وهن مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، زاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخى الزمن حتى أصبحت لكل لهجة منها لغة مستقلة. المراد باللغات السامية، اللغات التى تكلم بها نسل سام بن نوح. (زيدان، ١٩٨٧م: ٥١) وللغة العربية لهجات كثيرة ولكن لهجتا تميم وقريش هما اللهجتان الرئيسيتان بينها؛ لقد أتيح للغة قريش أن تتبوا المكانة الأولى بين اللهجات العربية، فأصبحت هى

الفصحى المقصودة عند الإطلاق وكان على اللغويين القدامى أن يعنوا بها عناية خاصة. (الصالح، لاتا: ٧٢)

تعدّ اللغة العربية أهم مقومات الثقافة العربية الإسلامية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطاً بعقيدة الأمة، وهويتها، وشخصيتها. لذلك صمدت أكثر من سبعة عشر قرناً سجلاً أميناً لحضارة أمتها، وازدهارها، وشاهداً على إبداع أبنائها، وهم يقودون ركب الحضارة التي سادت الأرض حوالى تسعة قرون. (مذكور، لاتا: ١٨٢)

لذلك اتسمت بسمات متعددة فى حروفها، ومفرداتها، وإعرابها، ودقة تعبيرها، وإيجازها، وهذه السمات جعلت أرنست رينان يقول فيها: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى، عند أمة من الرحل، تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها.» (الجندى، لاتا: ٢٨) أما الأمريكى (وليم ورل) فيقول: «إن اللغة العربية من اللين، والمرونة، ما يمكنها من التكيّف وفق مقتضيات هذا العصر، وهى لم تتقهقر فيما مضى أمام أية لغة أخرى، من اللغات التى احتكّت بها. وستحافظ على كيانها فى المستقبل، كما حافظت عليه فى الماضى.» (المصدر نفسه) ويرى المستشرق الإيطالى (جويدى) «أن اللغة العربية الشريفة آية للتعبير عن الأفكار، فحروفها تميّزت بانفرادها بحروف لا توجد فى اللغات الأخرى، كالضاد، والطاء، والعين، والغين، والحاء، والطاء، والقاف، وبثبات الحروف العربية الأصيلة، وبحركة البناء فى الحرف الواحد بين المعنيين، وبالعلاقة بين الحرف والمعنى الذى يشير إليه. أما مفرداتها فتميّزت بالمعنى، والاتساع، والتكاثر، والتوالد، وبمنطقيتها (منطقية فى قوالبها)، ودقة تعبيرها، من حيث الدقة فى الدلالة والإيجاز، ودقة التعبير عن المعانى.» (السيد، ١٩٨٨م: ٢٠٢-٢٠٣-٢٠٨-٢٠٩)

لذلك قال الإيطاليون: «إن لغة العرب تمتاز بجمالها، وموسيقاها، والتفاضل بين اللغات يكون فى كثرة إنتاجها الأدبى والفكرى لا فى عدد ألفاظها.» والعالم الألمانى (فرينباغ) يشير إلى غنى اللغة العربية فى قوله: «ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب، بل الذين نبغوا فى التأليف بها لا يمكن حصرهم، وإن اختلافنا عنهم فى الزمان، والسجاياء، والأخلاق، أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية، وبين ما ألفوه، حجاباً لانتبئين ما وراءه إلا بصعوبة.» (الجندى، لاتا: ٢٨)

واللغة العربية تفوقت على اللغات السامية الأخرى ولها من صفتين أساسيتين هما الاشتقاق والإعراب؛ والعرب يتكلمون لغة معربة فطروا عليها وكذلك البلاغة والإعراب ملكة لغوية عندهم. يقال: «كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام.» (ابن خلدون، ١٩٦٧م: ٤٦٥) والإعراب من خصائص اللغة العربية وهو مصدر "أعرب" والتي تعنى تبين الشيء أو توضيحه وقد كان الإعراب انعكاساً للواقع اللغوى الحى فى الجزيرة العربية. (كريم زكى، ٢٠٠٢م: ١٦)

والذى نلاحظه أنّ العربية لاتستسيغ الابتداء بالساكن من الحروف، ولذلك حرف اللسان لاينطلق بالساكن من الحروف. (الفراهيدى، ١٩٦٧م: ١٧٦) والعربية لاتجيز هذا كما أجازت ذلك اللغات الأجنبية الكثيرة، ولهذا يستعان بالهمزة المفتوحة للتوصل إلى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبراً إلى هذا الساكن من الحروف ليظهر فى سكونه. (السامرائى، ١٩٨٧م: ٣٨) ومما سبق نرى بأنّ أهم ما يميز اللغة العربية من اللغات الأخرى ما يلى:

١. هى من أقدم اللغات السامية. ٢. نزل بها القرآن الكريم. ٣. هى من اللغات التحليلية والمتصرفة التى تتغير أبنيتها بتغير المعانى وتحلل أجزاءها المترابطة فيما بينها بروابط تدلّ على علاقتها ومن هذا الصنف اللغة الهندية. ٤. اعتماد العرب الأمين على الأذن والسمع أكثر من العين والبصر أدى إلى صقل اللغة من الوجهة الصوتية. ٥. لكلّ حرف فيها مخرجه وصوته الخاص به. ٦. سعة مفرداتها وتراكيبها. ٧. سعتها فى التعبير وسعة الإيجاز. ٨. قدرتها على التعريب، واحتواء الألفاظ من اللغات الأخرى بشروط دقيقة معينة. ٩. العناية بجنسى الذكر والأنثى فى الكلمات. ١٠. فيها خاصية الترادف، والأضداد، والمشتركات اللفظية. ١١. ظاهرة الإعراب: تتفوق اللغة العربية بهذه الظاهرة عن باقى لغات الإنسانية حيث تتيح الفرصة للفظة كى تأخذ حريتها تقديماً وتأخيراً مع احتفاظها بموقعها الإعرابى. ١٢. غزارة صيغها وكثرة أوزانها. ١٣. ظاهرة المجاز، الطباق، الجناس، المقابلة، السجع والتشبيه. ١٤. فنون اللفظ كالبلاغة الفصاحة وما تحويه من محسنات. ١٥. كانت اللغة العربية هى اللغة الموسيقية الشاعرة التى تملك أكبر معجم لغوى.



٢. لهجات العرب

اللهجة في الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية فى بيئة خاصة. وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع، وأشمل، وتضم عدة اللهجات، لكلّ منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين اللهجات. (أنيس، ١٩٩٥م: ١٦)

وقد عرفت اللغة العربية اختلاف اللهجات منذ العصر الجاهلى، فقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب الكبرى: كقريش، تميم، طىء، هذيل وغيرها لهجتها المختلفة عن لهجات سائر القبائل اختلافات يسيرة تتعلق:

بالحركة والسكون نحو: "هو" بضم الهاء وسكونها، ونحو مَعَكُمْ وَمَعَكُمْ.

بالحركات نحو: "نستعين" بفتح النون وكسرها، قال الفراء: هى مفتوحة بلغة

قريش وأسد ومكسورة فى لغة غيرهم.

بتحقيق الهمزة وتسهيلها نحو: مستهزون ومستهزون.

بالتقديم والتأخير نحو: صاعقة وصاقعة.

وبالتذكير والتأنيث، فمنهم من يقول: هذه البقرة، هذه النخل ومنهم من

يقول: هذا البقر وهذا النخل.

وبالوقوف على ما رسم بالتاء بين الهاء والتاء نحو: هذه أمه، هذه أمة. (السيوطى،

٢٠٠٩م: ٢٥٥/١)

غير أننا نلاحظ أنّ العلماء القدامى لم يستخدموا مصطلح اللهجة للتعبير عن الاختلافات والتميزات اللغوية بين القبائل العربية، وإنما استخدموا مصطلح اللغة فقالوا: لغة الحجاز، لغة قريش، لغة تميم، ولغة أسد، وإلخ... وهم يعنون بذلك اللهجة واستخدموا فى بعض الأحيان مصطلح اللحن. (النادرى، ٢٠٠٥م: ١٥)

وهناك صراع لغوى على مر التاريخ وقد تحتاج عملية الصراع إلى قرون عديدة إلى أن تتم سيطرة لغة على لغة أخرى. لذلك تغلب لغة على لغة أخرى يكون تدريجياً وليس فجائياً. ومن خلال الصراع اللغوى يمكن أن تتغلب لغة على لغة أخرى فى حالتين: الحالة الأولى: نسبة نمو سكان أحد الشعبين المجاورين وتضييق حدود الشعب المتزايد فى العدد إلى درجة يلجأ أبناء الشعب إلى حدود

الشعب المجاور. ويزداد الاحتكاك ويشد الصراع اللغوي مما يؤدي إلى السيطرة. ويُشترط أن تكون لغة الشعب الكثير السكان لغة أكثر رقياً وأفرادها أكثر ثقافة وحضارة. مثلاً: طغت اللغة الألمانية على المناطق المجاورة لألمانيا بسويسرا والنمسا، وقضت على لهجاتها الأولى. الحالة الثانية: "تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور" فتغلب لغة الجانب الأكثر قوة ونفوذاً وحضارة. مثلاً: هزيمة لغة الباسك أمام اللغة الفرنسية واللغة الإسبانية. (وافي، لاتا: ٢٤٠-٢٤٣) وقد تبدو هذه العملية غير إنسانية أو ربما استعمارية حين تسيطر لغة قوية على لغة ضعيفة. ولكننا نشرح هنا ما جرى وما يجرى في الواقع بغض النظر عن اتفاقنا أو عدم اتفاقنا مع الحدث، فليس كل ما هو واقعي إنساني أو مقبول. لقد احتكت اللغة العربية باللغات اليمينية القديمة ودخلت في صراع معها مدة طويلة إلى أن تمكنت من السيطرة عليها في المراحل الأخيرة من العصر الجاهلي. ومع ذلك فقد أصابت اللغة العربية بعض التحريف في الأصوات والمفردات والقواعد، فأوجدت لهجات عربية جديدة في الجنوب، مختلفة عن لهجات الشمال. ومع السنين تمكن العرب في الشمال بالتفاهم مع أهل اليمن، ثم توحيد اللغة إلى حد كبير، فجاء الشعر الجاهلي بلغة واحدة رغم بقاء بعض اللهجات اليمينية الصغيرة في بعض المناطق النائية على حالها. ومن هذه اللهجات، اللهجة الأخيلية، واللهجة السقطرية، واللهجة المهرية إلى أن بعُدت هذه اللهجات عن أصولها الأولى. وبعد مجيء الإسلام تطورت اللغة العربية وما تزال تتطور. وظهرت لهجات جديدة تختلف عن اللهجات التي كانت موجودة في الجاهلية والإسلام والعصور التي لاحقتها. ولكن اللغة العربية الفصحى بقيت تقريباً على حالها كما كانت في عصر الإسلام، لأنه من طبيعة لغة الكتابة أنها بطيئة التغيير في الأصوات والقواعد. وسادت فكرة أن اللغتين اليمينية والعربية تمثلان لهجتين للغة العربية. ولذلك قسموا اللغة العربية على (العربية القحطانية - العاربة) أو لغة الجنوب أو اللغة الحميرية، و(العربية العدنانية - المستعربة)، أو لغة الشمال، أو اللغة المضربية (الحجاز، ونجد، وما جاورهما). وهذا التقسيم الأخير صحيح فقط بعد تغلب اللغة العربية على لهجات المنطقة. ولكنه ما زال تقسيماً غير صحيح فيما يتعلق باللغات اليمينية القديمة. (انظر: وافي، ١٩٥٦م: ٧٩-٨٦)



ونشير الآن إلى أهم لهجات اللغة العربية:

١.٢. لهجة قريش: يميل كثير من العلماء والباحثين، قديماً وحديثاً، إلى تمجيد لهجة قريش، وتأكيد تفوقها على سائر اللهجات العربية. يقول ابن فارس: «أجمع علماءنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم، أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة. وذلك أن الله - جلّ ثناءه - اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم النبي الرحمة محمداً (ص)، فجعل قريشاً قطّان حرمة وجيران بيته الحرام. وكانت تقوم قريش بتعلم المناسك بالحجاج وغيرهم يفتدون إلى مكة. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لاتجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تعلمون ونعلم، ومثل: شعير وبغير و...» (ابن فارس، ١٩٦٤م: ٢٣) وارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، كسكسة هوازن، تلتلة بهراء وعجرية ضبة. (ابن جنى، لاتا: ١٣/٢) وقد تأثر كثير من الباحثين المحدثين بمذهب القدماء، في تمجيد لهجة قريش، واعتبار أنها هي التي سادت على غيرها من سائر اللهجات العربية، وتحولت إلى اللغة العربية الفصحى الباقية.

٢.٢. اللهجة المعينية: هي منسوبة إلى المعينيين. وقد اتفق جملة من فحول المستشرقين «على أن معين أقدم دولة في اليمن بدليل أن كرب إل وطر السبئي قضى نهائياً على عرش اليمن، وأسس ملكاً عظيماً، بقي له الحول والطول مدة طويلة من التاريخ. عاش المعينيون على شاطئ البحر، وعرفت عاصمتهم باسم "قرنا" أو "قرنانا"، وقد سيطروا على التجارة بين الهند وبلاد العرب، فكانت قوافلهم التجارية تتجه من سواحل المحيط الهندي إلى شمال بلاد كنعان. وقد اجتهد العالم هومل في تعيين تاريخ دول معين، سبأ، حمير، حضرموت وقتبان، اعتماداً على النقوش القليلة التي وصلت إلينا.» (النادري، ٢٠٠٥م: ١٢٠ - ١٢١) ولكن أغلب النقوش غامضة وأخبارها ناقصة وأسماء ملوكها غير كاملة وفوق ذلك فإن هذه النقوش لاتشتمل على تواريخ يمكننا أن نعين زمن تدوينها.

٣.٢. لهجة تميم: إنَّ في المصادر والمعجمات اللغوية ما يشير إلى أن كثيراً من قواعد اللهجة التميمية أقوى قياساً من بعض القواعد القريشية، بل فيها ما يكاد الباحث يستنتج منه باطمئنان أن لهجة تميم كانت في كثير من مفرداتها وتراكيبها هي التي ينطق بها غالباً أبناء اللغة العربية. (الصالح، لاتا: ٧٢)

٤.٢. اللهجة السبئية: هي منسوبة إلى السبئيين الذين أسسوا مملكة مهيبة هي مملكة سبأ التي قامت على أنقاض مملكة معين، وكانت عاصمتها "مأرب". وقد ورد ذكر سبأ في القرآن الكريم. ويبدو أنه كان لسد مأرب دور كبير في خصب تربة مدينة مأرب وازدهار مزارعها. وقد امتد عصر قوّة هذه الدولة زمناً طويلاً، استغرق عهود بابل، آشور، اليهود، الفرس، اليونان والرومان. ظلت هذه اللهجة السبئية سائدة حتى في أثناء الحكم الحبشي الأول. (النادري، ٢٠٠٥م: ١٢٢)

٥.٢. اللهجة الحميرية القديمة: هي اللهجة المنسوبة إلى جماعات حمير. ويبدو أن الحميريين حاربوا السبئيين زمناً طويلاً دون جدوى، وكذلك كان حال اللهجة الحميرية في صراعها مع اللغة السبئية، إلى أن جرى طرد الأحباش للمرة الأولى سنة ٤٠٠ م، ثم عاد الأحباش فتغلبوا على اليمن وأسقطوا آخر ملوكها، وهو "ذونواس" الذي انهزم أمامهم سنة ٥٢٥ م. ودخلت اليمن إذاك حقبة جديدة من الاحتلال الحبشي، استمرت حتى سنة ٥٧٠ م، عندما غزتها جيوش الفرس واستمر حكم الفرس في اليمن إلى عهد الفتح الإسلامي. (المصدر نفسه: ١٢٢)

٦.٢. اللهجة القتبانية: هي منسوبة إلى القبائل القتبانية التي أقامت دولتها في المناطق الساحلية الواقعة شمال عدن. وقد خاض القتبانيون حروباً عديدة مع السبئيين، وهي حروب انتهت بهزيمة القتبانيين واندماج قبائلهم في مملكة سبأ، في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. (المصدر نفسه: ١٢٣)

٣. تقسيم النشاط اللغوي

اللغة ليست مجرد التعبير عن الأفكار تكوّنت، بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير نفسها، أو لنقل، إن تطوير العلوم مرهون بتطوير اللغة. وهي نتيجة لها من الأهمية والخطورة ما لا يحتاج متناً إلى بيان، لأنّه في هذه الحالة يصبح محالاً أن يتغير للناس فكر دون أن تتغير اللغة في طرائق، ووسائل استخدامها، وينقسم



النشاط اللغوى إلى نوعين: اللغة الفصحى واللهجات المتباينة:

١.٣. اللغة الفصحى: لاشك فى أنّ القارئ يعلم أنّ للعربية مستويات من الفصاحة والبيان. وإنّ لفظ العربية الفصحى يقصد به هنا، تلك الصفات المشتركة بين مختلف مستويات الفصاحة فى العربية على مرّ العصور. هذا مع العلم بأنّ بعض المفردات فقط من فصحى العربية قبل قرون عديدة ومنذ العصر الجاهلى هى التى يمكن أن يصعب فهمها على الإنسان العربى المعاصر. والفصحى هى لغة قريش، فقد روى أنّ عبيد الله قال: «أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم، أنّ قريشاً أفصح العرب لسنة وأصفاهم لغة. وذلك أنّ الله - جلّ ثناؤه - اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبى الرحمة محمداً (ص) وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة أسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائرهم وسلاتقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب.» (ابن فارس، ١٩٦٤م: ٦٧) وبدل الشعر الجاهلى إذن دلالة واضحة على أنّ القبائل العربية المختلفة اصطلحت على لغة مشتركة متداولة فى أنحاء واسعة امتدّت من اليمن حتى الفرات. وللعرب فى نشوء هذه اللغة الفصحى رأى يذهب إلى أنّها عين اللهجة القريشية لأنّ قريشاً كانت أجود العرب انتفاء للفصحى وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم. (ضيف، ٢٠٠٣م: ١٣٤)

ولقد ذهب المستشرقون فى أصل العربية الفصحى مذاهب شتى تناقض أساساً ما اعتقده العرب منذ القديم حول صلة الفصحى باللهجة القريشية والحق أنّ مذاهب المستشرقين فى هذا الصدد لاتستند إلى أدلة علمية مقبولة، وهى لاتتجاوز حدود الحدس والفرض. فنولدكه يرى أنّ الفصحى تركّبت من اللهجات الأساسية فى جزيرة العرب كالحجاز، نجد وإقليم الفرات، لأنّ الاختلافات بين هذه اللهجات كانت قليلة وتبعه جويدى فى الزعم بأنّ الفصحى ليست لهجة معينة لقبيلة مخصوصة، بل هى مزيج من لهجات نجد وما جاورها. ولكن الحق أنّ أقرب الآراء إلى الحقائق التاريخية، واللغوية هو القائل بنشأة الفصحى فى قريش لأسباب دينية، اقتصادية، سياسية، وأدبية؛ وفى قريش نفوذ السلطة وقوة المراكز لأنّها أمّ القرى فالعربية الفصحى توصف حقاً بأنّها لغة انتفايية مشتركة تشكّلت

أصولها وتوضّحت مقاييسها لدى قبيلة قريش. (قدور، ١٩٩٩م: ١١٦)

٢.٣. اللهجات المتباينة: ومنها ما يكون مذموماً وقد أورد طرفاً من خصائص بعضها في باب القول في اختلاف لغات العرب: اختلاف لغات العرب من وجوه: الاختلاف في الحركة: كقولنا نستعين ونستعين: بفتح النون وكسرها. قال الفراء وهي مفتوحة في لغة قيس، وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون. ومنه الاختلاف في التقديم والتأخير نحو: صاعقة وصاعقة و... (المصدر نفسه: ٤٩) وتلك اللهجات المتباينة التي وفدت من شبه الجزيرة قد غزت بيئات معمورة يتكلم أهلها لغات غير عربية، منها القبطي، الروماني، الفارسي، الآرامي، البربري، وغير ذلك من لغات كانت شائعة في البيئات التي تناولها الفتوحات الإسلامية. وهنا كان لابد من صراع بين اللهجات الغازية والمغزوة أدى في معظم الحالات إلى انزواء اللهجات المغزوة أو القضاء عليها قضاء تاماً. فتركت القبطية قبل انزوائها بعض الآثار الصوتية في ألسنة المصريين حين تكلموا باللهجات العربية. والقبطية ظلت يتكلم بها في بعض النواحي المصرية حتى القرن السابع عشر. وقد حدث ما يشبه هذا في البيئة العراقية، والشامية، والمغربية، وهكذا. (أنيس، ١٩٩٥م: ١١-١٢) فتطوّرت اللهجات العربية الحديثة في بيئاتها المختلفة تطوّرات مستقلة، لَمَّا أحاط بها من ظروف اجتماعية مختلفة في كلّ بيئة من تلك البيئات ولَمَّا طرأ عليها بعد الفتح العربي من ظروف سياسية اختلفت أيضاً في تلك البيئات، فهناك آثار فارسية، تركية، وأوروبية (فرنسية وإيطالية بل وإنكليزية أيضاً).

واللغة العربية العامية التي يتحدث بها اليوم في البلاد العربية، فإنّ وصف هذه اللغة من نواحيها المختلفة أمر سهل ميسور، إذ يقال مثلاً: إنّ الاستفهام يعبر عنه بنبر أحد أجزاء الجملة، وإنّ النفي يكون بالأداة مثلاً: "مش" وإنّ ترتيب الجملة فيها: فاعل + فعل + مفعول إلخ. ولكن معرفة سرّ وصول هذه النواحي المختلفة، من صوتية، صرفية، تركيبية، دلالية وغيرها، إلى ما وصلت إليه، كان من الممكن أن يظل لغزاً، لولا معرفتنا بالعربية الفصحى. وكان من الممكن أن يزداد وضوح التطور وأسواره في هذه اللغة العامية، لو أنّنا توصلنا إلى معرفة حلقات التطور المختلفة، من الجاهلية حتى الآن. (بلاسي، ١٩٩٩م: ٥٠) وقد يطلق بعضهم على العامية أسماء أخرى كالمحكّية، الدارجة، اللهجة الشائعة، وسواها. ويبدو أنّ



العامية بدأت تظهر في العالم العربي، في عصر الفتوحات الإسلامية، بعد اختلاط العرب بالأعاجم وتفشى اللحن بين الناس، غير أنها لم تتميز عن الفصحى تميزاً واضحاً إلا بعد زمن يصعب تحديده على وجه الدقة، استطاعت خلاله أن تكتسب سماتها الخاصة، في الألفاظ، دلالاتها، في المادة الصوتية والأساليب، التراكيب وقواعد النحو. (النادري، ٢٠٠٥م: ٣٤٨)

ويرد علماء اللغة نشوء اللهجات في العالم إلى عاملين رئيسيين:

أحدهما: الانعزال الجغرافي، والاجتماعي بين بيئات الشعب الواحد: وذلك عندما تفصل العوامل الطبيعية من جبال، أو أنهار، أو صحارى، ونحوها بين بيئات اللغة الواحدة، فتعزل إحداها عن الأخرى وتتطور كل بيئة في ظروف بيئية واجتماعية عن ظروف البيئة الأخرى. (المصدر نفسه: ١٥٣-١٥٤) وخير مثل يمكن أن يضرب لهذا الانعزال الذى يشعب اللغة الواحدة إلى لهجات، تلك اللهجات العربية القديمة فى جزيرة العرب قبل الإسلام. (أنيس، ١٩٩٥م: ٢٣)

الثانى: الصراع اللغوى الناجم عن الغزو أو الهجرة أو التجاور: وهو صراع لا تكاد تنجو منه لغة من اللغات. وإن تطوّر اللغة المستمر فى معزل عن كل تأثير خارجى يعدّ أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق فى أية لغة. بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذى يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً هاماً فى التطور اللغوى. واللهجات العربية التى انتشرت فى العالم الإسلام بعد الفتح مثال من أمثلة هذا الصراع اللغوى. (المصدر نفسه: ٢٤)

٤. صلة اللهجات المعاصرة بالفصحى

تعدّد اللهجات كان موجوداً عند العرب من أيام الجاهلية، حيث كانت هناك لهجة لكل قبيلة من القبائل وقد استمر الوضع هكذا بعد مجيء الإسلام. ومن الآراء الواردة أنّ الازدواجية اللغوية كانت موجودة عند العرب من أيام الجاهلية، حيث كانت هناك لهجة لكل قبيلة من القبائل وبالإضافة إلى هذه اللهجات فقد كانت هناك لغة واحدة مشتركة تكوّنت من مزيج من لهجات وسط وشرق شبه الجزيرة العربية بتأثير من التجارة والحج وغيرها. وقد كان التواصل بين أفراد القبيلة الواحدة يتم بواسطة لهجتها الخاصة، أمّا عندما يخاطب شخص ما أو



يتحدث إلى أشخاص من قبائل أخرى فيستعمل حينها اللغة الواحدة المشتركة. وقد استمر الوضع هكذا بعد مجيء الإسلام. ويرجح أنّ العامية الحديثة بدأت حين الفتوحات الإسلامية، حيث أنّ المسلمين الجدد في بلاد الأعاجم (والتي أصبح العديد منها اليوم من البلدان العربية) بدأوا بتعلّم العربية لكنّهم وبشكل طبيعي لم يستطيعوا تحدثها كما يتحدثها العرب بالضبط، وبالتالي فقد حرّفت قليلاً. وفي ذلك الوقت لم يكن الفرق واضحاً كثيراً، لكن بالتدرّج حرّفت العربية وتغيّرت صفاتها الصوتية وتركيب الجمل فيها إلخ... حتّى تحوّلت إلى اللهجات العامية الحديثة. (ويلز، ٢٠١٠م)

ومسألة تقريب العامية من الفصيحة أمر يتعلق بالزمن الطويل، فليس من الممكن القيام بمشروع أو بحث للوصول إلى هذا الهدف الخطير ومتعلق بالزمن، إنّ خير الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا هو نشر العلم والثقافة بين أبناء البلد الواحد بحيث يتيسر لجميع أبناء البلد قسط من العلم والمعرفة ومن شأن هذا أن يعمل على رفع مستوى اللغة المستعملة، التي هي قريبة من الفصيحة. ونستطيع أن ندلل على قربها من الفصيحة إذا نظرنا إلى اللغة التي يستعملها المثقفون اليوم في محادثاتهم وفي استعمالاتهم اليومية، فهي لغة في مجموعها تكاد تخلو من اللفظ العامي الدخيل، فمجموعة ألفاظها على العموم فصيحة ويبدو قربها من الفصح إذا وازنا بين هذه اللغة التي يستعملها المثقف وهو من أسرة جاهلة واللغة التي يستعملها سائر أفراد أسرته والتي هي موعلة في العامية الدارجة. (السامرائي، ١٩٨٧م: ١٣)

إذا كانت اللغة العربية الفصحى هي الرابط القومي الموحد لأبناء العربية، باعتبارها اللغة المشتركة وهي لغة القرآن والموروث العقائدي ولغة الشعر والأدب الواحد، ولغة المعرفة والعلم، فإنّ اللهجات العامية في الأقطار العربية مختلفة إلى الحد الذي لا يستطيع الإنسان المشرق العربي مثلاً فهم لهجة الإنسان العربي الجزائري أو المغربي، وهذا معناه: أنّ إبدال الفصحى بالعامية عملية تهدف إلى تجزئة الأمة الواحدة إلى كيانات لغوية متباينة تعمل على إعاقة تحقيق الوحدة العربية، وتقطع الصلات والشائج التي تكوّنت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة. وإنّ التجربة التاريخية للأمة العربية في ممارسة جميع الأنشطة قد دونت باللغة



العربية ووصلت إلينا وتمت معرفتنا لها من خلال الآثار، فإذا ما تمّ إحلال اللهجة العامية محل الفصحى، فإنّ علينا أن نذكر بأنّ هذا التراث العربي سيصبح مجرد تركة ثقيلة لا يستطيع الإنسان العربي الاطلاع عليه ودراسته وبذلك تقطع الصلة بين ماضى الأمة وحاضرها. (ياسين، ٢٠٠٥م: ٥١)

والمشكلة اللغوية قائمة في العصر الحاضر كما أسلفنا، وذلك لأنّ العربية الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب وغير اللهجات الدارجة التي لم ترق إلى لغة المثقفين وهي في مادتها نماذج متأخرة وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل. فشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة إلى الحد الذي كانت عليه العربية في مختلف عصورها، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواج في اللغة. وربّما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة، وذلك بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح العربية، ولكنّها متحللة من ضوابط الإعراب؛ فالمتكلمون بها يلتزمون الإسكان في صورها، وهذا ما نصبوا إليه في تقريب العامية من الفصحى. فبين اللهجات جميعها وبين العربية الفصيحة كما عرفناها في لغة القرآن أو في لغة ما صحّ من النصوص الجاهلية فروعاً بعيدة ومعنى ذلك أنّه ليس من المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الأولى، أو صورة للمرحلة التي سبقت الفصيحة المعروفة في لغة القرن الأول الهجري.

جوهر مشكلة الفصحى والعامية كما يرى بعض الباحثين، أنّ العربي اليوم نفسه مضطر لاستخدام أداتين لغويتين، تختلف إحداها عن الأخرى لناحية الأصوات، قواعد بناء الجملة، تصريف المشتقات ودلالات الألفاظ والأساليب. وإحدى هاتين الأداتين، وهي العامية مستخدمة في الحديث اليومي دون الكتابة، ويكتسبها العربي بالتقليد والمحاكاة بدءاً من مراحل الطفولة الأولى، فتنمو معه، وتتأصل فيه. ويبدأ استخدامه لهذه الأداة استخداماً ميسوراً سلساً منذ تلك المراحل. في حين أنّه بحاجة إلى تعلم الفصحى في المدرسة بما يشبه تعلم اللغة الأجنبية ويقضى سنين طويلة قبل أن يتمكن من إتقانها واستخدامها استخداماً يقتصر في كثير من الأحيان على الكتابة دون الحديث اليومي. ويغالى بعض الباحثين، أحياناً في عرض جوهر المشكلة وحشد مخاطر الثنائية وآثارها

على الفكر، التربية، الشخصية، الأخلاق والفنون الجميلة. (يعقوب، ١٩٨٦م: ١٦٥) وتعددت آراء الباحثين والمهتمين بموضوع ثنائية الفصحى والعامية، وهم كثير، علت الأصوات واستهلك كثير من الحبر في مقالات وكتب؛ وهم مقترحون حلولاً لهذه الثنائية التي تعامل أكثرهم معها على أنها مشكلة خطيرة ينبغي إنهاؤها. وقد صنف بعض الباحثين اقتراحات الداعين إلى القضاء في خمسة اتجاهات:

١. اتجاه يرى أن نسمو بالعامية إلى الفصحى، فنعمل بمختلف الوسائل كي يتكلم الناس العربية الفصحى في جميع شؤونهم.

٢. اتجاه يطالب بالتخلي عن العربية، فصحي أو عامية، إلى لغة أجنبية.

٣. اتجاه يدعو إلى نوع من الملاقاة والتوحيد بين الفصحى والعامية.

٤. اتجاه يدعو إلى ما سمّاه "اللهجة العربية المحكية أو المشتركة"، أو "لغة المتأدبين في جميع الأقطار العربية" أو "لغة مثقفي العرب".

٥. اتجاه يرى اعتماد العامية في الكتابة العلمية والأدبية، وفي مختلف الشؤون التي نستخدم فيها الفصحى. (المصدر نفسه: ١٤٨)

وقد لاحظ الدكتور إميل بديع يعقوب «أنه إن كانت "اللهجة العربية المشتركة" تختلف عن العامية التي نسمعها في مجتمعنا، فإننا لانستطيع فرض مثل هذه اللغة على مخاطبات الناس، لأنّ أحداً من المواطنين العرب لن يرضى بالتخلي عن عاميته ولهجته. ذلك أنّ العامية أسهل على المتكلم بها من أي لغة. أمّا إذا اصطنعنا "هذه اللهجة العربية المحكية المشتركة" في كتاباتنا فقط، فإنّ مشكلة ثنائية اللغة تتفاهم، إذ يصبح عندنا ثلاث لغات: لغة عامية يتكلمها الناس في حياتهم العادية، ولغة موضوعة نستخدمها في كتاباتنا، ولغة فصحي نتعلمها لفهم تراثنا؛ فنقع في المحذور الذي حاولنا الهروب منه وذلك بتخلصنا من الثنائية اللغوية، ووقوعنا في ثلاثية لغوية أشد خطورة.» (وافي، ١٩٥٦م: ١٥٤)

يعتقد بعض بأنّ الفصحى سبب تخلف العرب، وذلك لأنّ التخلف العربي وهو حقيقة لا مرأى فيها، إنّما هو تخلف فرضته الحقب الاستعمارية المتتابعة على الأمة العربية وهي حقب متصلة حتى اليوم. وهو تخلف محمى بإرادة الغرب الاستعماري وبواقع التجزئة والتفتت السياسى المفروض أيضاً بإرادة هذا الغرب ولا أدلّ على بطلان هذه الحجة من أن هذه اللغة الفصحى استطاعت أن تسود العالم



فى العصر العباسى الأول، تعلّمها الفرس، الهنود، الأتراك، الأوروبيون وغيرهم، لأنّها كانت لغة العلوم، والثقافة، والحضارة التى كان الغربيون بخاصة محرومين منها، يعانون ظلام قرونهم الوسطى. ولكن نلاحظ أنّ العامية فقيرة فى المتن ولا تملك من المفردات إلّا جزءاً ضئيلاً جداً ممّا تملكه الفصحى. ثمّ إنّ العامية، مع وجود القواعد فيها مضطربة القواعد والتراكيب والأساليب، غامضة المعانى، متباينة الأصوات ضمن الدولة الواحدة والجماعة اللغوية الواحدة الناطقة بهذه العامية. وحدثت معجزة لغوية فحوّلت العامية إلى أداة للكتابة العلمية والأدبية، بدلاً من الفصحى. وإذا افترضنا بدلاً أنّ تلك المعجزة اللغوية قد حدثت يضمن لنا أن تبقى العامية التى تحوّلت الى فصحى على حالها قوية، متماسكة وهذا أمر حتمى الحدوث لأنّ من طبيعة لهجات الحديث أن تتطور خلافاً للغة الكتابة، متأثرة بعوامل الاحتكاك اللغوى وهى كثيرة باللغة السهولة فى العصر الحاضر.

وإنّ أمر اعتماد هذه اللهجة العامية أو تلك عائد للسلطة السياسية فى كلّ دولة عربية لا يكون إلّا بأن تصطنع كلّ منطقة، بل كلّ مدينة وبل كلّ قرية لغة كتابة تتفق مع لغة حديثها وبذلك يصبح فى البلاد العربية آلاف من لغات الكتابة، بمقدار ما فيها من مناطق ومدن وقرى ولا يظنّ عاقلاً ينصح بمثل هذه الفوضى. (وافتى، ١٩٥٦م: ١٥٨)

٥. هل تتغلب العربية الفصحى على اللهجات العامية المختلفة؟

إذا نظرنا فى الانحطاط الذى طرأ على اللغة بعد أن دالت دول العرب وضعفت شوكتهم فى العصر المغولى والعصر العثمانى، نجد أن ما نسمّيه انحطاطاً فى اللغة، لو أرونا تفسير لما استطعنا أن نمثله إلّا بقصور اللغة عن مجارة العلم وبتغلب العامية عليها. العامية التى سارت إلى جنبها هذا الزمن الطويل فكانت تنازعها كلغة أجنبية، كادت لاتقتصر فى منازعتها للفصحى على أن تعزلها وتحل محلّها من ألسنة المتكلمين. فقد كادت فى بعض الأحوال تصبح لغة الكتابة بعد أن أصبحت لغة التكلّم كما يظهر ذلك لمن تتبع سير اللغة ورأى الحالة التى انتهت إليها فى لبنان، سورية ومصر فى آخر عهد المماليك. ويقول جرجى زيدان: «فلم ينقض القرن الثامن عشر حتّى أصبحت لغة الكتابة أشبه شىء بلغة العامة

لركاكة عباراتها مع ما فيها من الألفاظ الأعجمية والعامية.» (كفوري، لاتا: ٤٨) وتشكل العاميات العربية اليوم مزيجاً من كلمات الفصيحة محرفة ومفردات أعجمية وأصول أخرى لاتعرف هويتها المعجمية، وتشترك جميع هذه العاميات بافتقارها إلى قواعد ثابتة، سواء على الصعيد الصوتي أو التركيبي أو الدلالي. يتضح ممّا سلف أنّ اللهجات العربية المعاصرة هي امتداد لتلك اللهجات المولدة، إثر انتشار العرب مع الإسلام في أمصار الدولة الإسلامية. (زكريا، ٢٠٠٥م: ٨٦) وهنا سنعرض طرفاً من خصائص اللهجات المصرية ولاسيما اللهجة النموذجية فيها وهي اللهجة القاهرية، وما ظهر فيها من صفات خاصة، نمت واستقلت مع الزمن وسنقصر في هذه الإشارة العابرة على بعض التطوّرات الصوتية في هذه اللهجة وعلى تطوّر المعانى بعض الكلمات:

فقدت معظم اللهجات المصرية بعض الأصوات العربية القديمة، أمثال: التاء، الذال، الظاء والقاف واستبدلت بها على الترتيب: التاء، الدال، الضاد، الهمزة أو الجيم. مثلاً ينطقون الضاد سيناً، الطاء تاء، الضاد دالاً، الظاء زايّاً مفخمة وهكذا مثل: صقع: سقع فلاناً قلماً، غضر عنه أى انصرف. قد صرفت اللغة الفصيحة أنظار الناس عن لغة كلامهم، فلم يعنوا بما عرض لها من تطور مع الزمن ولهذا اتخذت في الأفواه أشكالاً وصوراً تباينت باختلاف الأجيال والعصور. والناس لا يشعرون ولا يلاحظون تلك الفروق وإنّما وجهوا كل عنايتهم الى لغة الكتابة وهي اللغة الفصحى؛ فإذا انحرف الطفل في الكلام بلهجة أبيه لم يجد من يعنى بتصحيح هذا الانحراف والابقاء على صورة معينة في الكلام. فأخذت اللهجة مجراها الطبيعي وتغيرت جيلاً بعد جيل. (أنيس، ١٩٩٥م: ٢٤٧-٢٤٨) يقول إبراهيم أنيس: «نحن ننسب التطورات الحديثة إلى أصل قديم كان شائعاً في بعض اللهجات العرب القديمة مثل التعبير عن الزمن الحالي أو عن العادة بفعل مضارع متصل بالباء في غالب الأحيان، أو بالذال أو القاف أو العين في أحيان أخرى وهذا الأمر شائع في لهجات كلامهم وفي حديث خطابهم، انحدرت هذه الظاهرة إلى لهجات كلامنا الآن فأصبح المصري، أهل الشام، شرق الأردن، أهل مكة وبعض جهات اليمن يقولون مثلاً ييلعب، بيغتنى... إلخ. ونرى في لهجة بغداد أن يتصلوا الدال بالفعل المضارع، فهم يقولون: دا يلعب، دا يغتنى. نرى النفي مع الشين في نحو: ما



تخفش، ما جاش في بلاد الشام، مصر، بلاد اليمن وجهات أخرى من الدول العربية الحديثة وهذه ظاهرة قديمة في بعض اللهجات العربية القديمة انحدرت إلينا من تلك القبائل القديمة.» (المصدر نفسه: ٢٤١ - ٢٤٢)

ينبغي أن يعمم استعمال العربية الفصحى المعاصرة في المؤسسات التعليمية كافة (الروضات، المدارس، المعاهد والجامعات) إذ هي لغة المناهج الدراسية، فيدرّب التلاميذ على مهاراتها الأربع (الاستماع، التحدث، القراءة، والكتابة) ويلتزم المعلمون بها. وتبتهوا إلى أنّ كلّ أستاذ هو معلم للغة العربية بصورة مؤثرة غير مباشرة. ويلتزم معلمو المواد الأخرى بالعربية الفصحى في دروسهم، ليكونوا قدوة صالحة لتلاميذهم ويجب عليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيهم منهم، وتهيأ الظروف والأجواء المتنوعة لذلك، فتفعل في المدارس إذاعة الصباح، وإذاعة وقت الاستراحة والمنتديات، والنشاطات اللامهنية وتُسخر الجهود لينشط الطلاب والأساندة للحديث بالفصحى، حتى تترسخ فيهم ملكتها وتملك أسنتهم دربتها ويكون أخذهم بالتدريب تدريجاً إلى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها في المؤسسات العلمية.

وكانت في الشام محاولة يحكيها "سعيد الأفغاني" عن مدرسة الأمينية والإسعاف الخيري وكانت مندمجتين آخر العهد التركي، فالمدير وبعض المدرسين كانوا يلتزمون التحدث بالفصحى في حوارهم مع الطلاب، وفي إلقاء الدروس وفي التنبيهات العامة صباحاً وقبل الانصراف. (الأفغاني، ١٩٨٧م: ٣٠) فهذا دليل إدراكهم أهمية التواصل في أثناء اليوم الدراسي باللغة العربية الفصحى، وأثرها على التكوين اللغوي والعلمي والثقافي للناشئة. فاستخدام اللغة الفصحى يؤدي إلى معرفتها وفهمها، والتفكير المستمر بها، ثمّ التحليل العميق لهذه المعلومات والتمييز بينها وتمثلها واستدعائها وقت الحاجة.

يزعم بعض المعلمين أنّ من الأطفال من لا يفهم ما يقولونه إذا تحدثوا معهم بالفصحى، إنّ وجود لغة عليا للعلم والأدب والفكر مع لهجات محلية للتعامل ظاهرة طبيعية عرفتتها العربية منذ العصر الجاهلي، وتعرفها الدنيا في سائر اللغات الحية. لكن الاستعمار استغلّ هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها الشعبية، فراجت دعاوى تتهم الفصحى بالعقم والبداءة وتلقى عليها مسؤولية



تخلفنا وتدعو للعامية وقد استمرت آثار هذه الدعاوى لدى بعض الفئات من الناس وفى الحقيقة إنّ هذه المفاهيم خاطئة، فالقرآن نزل بلسان عربى مبين وجمع الناس عند لغته العليا ولم تحل اللهجات الشعبية دون فهم العامة لما يسمعون من نصوص الفصحى والطلاب غير عاجزين عن فهم كلام المعلم إذا تحدّث بلغة القرآن من غير تقعّر وتفصّح ولذلك أهداف ايجابية وفوائد جمّة. هناك مواقف فى الحياة اليومية تتطلب استعمال اللهجة العامية ولو استعمل الفرد فيها الفصحى كان موضعاً للسخرية والاستهجان وهناك مواقف أخرى لا تُصلح لها إلا الفصحى ولو استعمل العامية فى هذه المواقف لكان فى ذلك ما يدعو إلى اتهامه بالتقصير أو الجهل. (فجال، ٢٠٠٨م: ٩٨-٩٩)

وفى الحقيقة يصعب علينا إدراك تطور المعانى فى اللهجات القديمة لبعده العهد بيننا وبين الزمن الذى تمّ فيه هذا التطور، ولجهلنا التام بتاريخ الكلمات العربية قبل الإسلام، ولكننا حين نتبع معانى كثير من الكلمات العربية الأصل ونقارنها بما صارت إليه فى لهجة كلامنا، نستطيع بسهولة أن ندرك كيف يمكن أن يتطور معنى الكلمة ويتغير. نحن عادة نرفض المعانى الحديثة ونسميها مولدة وننكر عليها فصاحتها لتمسكنا بالمعانى القديمة ورغبتنا فى التقيّد بها ننظر إلى المعانى المولدة شزراً ونتحاشاها فى أساليبنا الجديدة. وقد أسلفت أنّ اللهجات الخاصة قد رافقت الفصحى فى سائر عصور العربية ولعلّ ذلك كان سبب الدعوة القائلة بوجود المشكلة، ولا يحسب الإنسان أنّ المشكلة اللغوية وما ينتج عنها من مشكلات ثقافية هى وليدة عصرنا الحديث، فهى قديمة كما نعرف ذلك بالبحث اللغوى التاريخى، ولكننا نستطيع أن نقول: إنّها اليوم أعقد ممّا كانت بالأمس وذلك لأنّ المجتمع العربى يواجه حضارة معقدة تلزمه أن يكون مزوداً بالآلات للأخذ بنواحي هذه الحضارة المتعددة الأطراف، ومن هذه الآلات والأدوات مسألة اللغة؛ فلا تغنى لهجة اليوم الدارجة كما أنّ الفصحى لم يعد اللغة التى يملكها الناس ويتصرفون فى أمرها. وقد عرفنا أنّ اللغة العامية كانت معروفة فى أيام العربية الأولى، وليست رأينا بالعربية الأولى العصور التى سبقت الإسلام وظهور النبوة فتلک حقب لانعرف من أمرها الشىء الواضح الذى يمكن أن يكون أساساً للبحث. ومعلوم أنّ العربية بدع بين اللغات القديمة، ذلك أنّنا لانعرف عن طفولتها



شيئاً نجعله مادة أصيلة في البحث بحيث نقيم من هذه الركائز بناء يظهر التاريخ اللغوى العام لهذه اللغة.

إن اللهجات العامية تتعدّل وتتهذّب، ويدلك الخشن فيها فيلين، ولكنّها لا ولن تُغلب ويجب ألا تُغلب، لأنّها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام. إن اللغات تتبع، مثل كلّ شيء آخر، سُنّة بقاء الأنسب وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب التي ستبقى، لأنّه أقرب إلى فكرة الأمة. لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامّية، ولتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنّية لا تخلو من الجميل المرغوب، والجديد المبتكر، بل في أوروبا وأميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكّنوا من التوفيق بين العامّي والفصيح في قصائدهم وموشّحاتهم فجاءت بليغة ومؤثّرة. وعندى أنّ في الموالي، الزجل، العتابا، الاستعارات المستملّحة، والتعابير الرشيقة المستنبّطة، ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائد ومجلّات العربية، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الراقصات المترنّات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة. وليست اللهجات العامّية في مصر، سوريا والعراق أبعد من عن لغة المعرّي والمنتبى من لهجة الهمج الإيطالية عن لغة أو قيدي وقرجيل. فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم، ووَضع كتاباً عظيماً في إحدى تلك اللهجات، تحوّلت هذه إلى لغة فصحي. بيد أنّه بعيد حدوث ذلك في الأقطار العربية، لأنّ الشرقيين أشد ميلاً إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل، فهم المحافظون، على معرفة منهم، أو على غير معرفة، فإن قام كبير بينهم، لزم، في إظهار مواهبه، السبيل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبّل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده. (يعقوب، ١٩٨٥م: ٦٤)

النتيجة

وأخيراً يمكننا أن نقول: لم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوى من ازدواج في اللغة. وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابه وذلك بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح العربية ولكنها متحللة من ضوابط الإعراب؛ فالمتكلمون بها يلتزمون الإسكان في صورها وهذا ما نصبوا إليه في تقريب العامية في الفصح. وهذا معناه أنّ اللهجات العامية تتعدّل، وتتهذّب، ويدلك



الخشن فيها فيلين ولكنها لا ولن تُغلب ويجب ألا تُغلب لأنّها المصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام. ومن جهة أخرى، إنّ إبدال الفصحى بالعامية عملية تهدف إلى تجزئة الأمة الواحدة إلى كيانات لغوية متباينة تعمل على إعاقة تحقيق الوحدة العربية، وتقطيع الصلات والوشائج التي تكونت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة. ولكن بإمكان الفصحى أن تفيد من العامية الدّارجة في وضع الألفاظ والمصطلحات، وفي ظنّ الكثير أنّ هذا المتولد أو المولّد الذي أنشأته العامية أولى من إقحام الأعجمي، وإنّ مسّه التغيير حتى يتلاءم مع نظام العربية في أصواتها، وأبنيته، خاصّةً ما وضعه أبناء البادية. ويمكن للفصحى أيضاً أن تستفيد من العامية في الأمثال والحكم، والمجازات، والكنيات، والطرف، وهي مورد لا ينضب، ومادة لا تنفد؛ لأنّ العامّة كانوا غالبية الأمّة، وهي في أوج سلطانها، واتخذوا العربية العامية وعاء أودعوه معانيهم، وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم، فكانت أمثالهم تسير، وأقاصيصهم تحكى، ومصطلحاتهم تنقل، ومواصفاتهم تذيع وإنه ما يزال في العاميات ثروة يمكن الاحتفاظ بها.

وفي الواقع إنّ العامية هي المنطلق الذي بسببه يمكن تذوق اللغة الفصحى، واللغة بدون ذوق ثقيلة وخيمة، فمن تكلم العامية استطاع تذوق ألفاظها، وتراكيبها، ومعانيها، وأحسّ بجرسها وإيقاعها، ومرّد هذا أنّ الفصحى والعامية في أصلهما شيء واحد، وهذا الذوق لا يحسّ به من تعلّم لغةً أجنبيةً، وفي هذا ردّ على الذين يعدّون العربية الفصحى لغة ميّنة، ناسين امتدادها في الحياة من خلال العامية التي لا يلبث متحدّثها أن يئوب إلى لغته الأصلية بشيء من التعليم، والتوجيه، والمجاهدة.

المصادر والمراجع

- آذرشب، محمد علي. ١٣٨٣ ش. اللغة العربية الحديثة. تهران: سمت.
- ابن جني، ابوالفتح عثمان. لانا. الخصائص. تحقيق محمد علي نجار. بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. ١٩٦٧ م. المقدمة. بيروت: دار الشعب.
- ابن فارس، أحمد. ١٩٦٤ م. الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق مصطفى الشويمي. بيروت: لانا.
- الأفغانى، سعيد. ١٩٨٧ م. من حاضر اللغة العربية. بيروت: دار الفكر.



- أنيس، إبراهيم. ١٩٩٥م. فى اللهجات العربية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- بلاسى، محمد السيد على. ١٩٩٩م. المدخل إلى البحث اللغوى. بيروت: الدار الثقافية للنشر.
- الجندى، أنور. لاتا. اللغة العربية بين حمايتها وخصومها. القاهرة: مطبعة الرسالة.
- حسان، تمام. ١٩٧٣م. اللغة العربية معناها ومبناها. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- خرما، نايف. ١٩٧٨م. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة. الكويت: عالم المعرفة.
- زيدان، جرجى. ١٩٨٧م. الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية. بيروت: دار الحداثة.
- السامرائى، إبراهيم. ١٩٨١م. التطور اللغوى التاريخى. بيروت: دار الأندلس.
- _____ ١٩٨٧م. فقه اللغة المقارن. بيروت: دارالعلم للملايين.
- السعران، محمود. ١٩٩٧م. علم اللغة: مقدمة للقارى العربى. القاهرة: دار الفكر العربى.
- سيد، محود أحمد. ١٩٨٨م. فى طرائق تدريس اللغة العربية. دمشق: جامعة دمشق.
- السيوطى، جلال الدين. ٢٠٠٩م. المزهرة فى علوم اللغة وأنواعها. بيروت: المكتبة العصرية.
- الرصالح، صبحى. لاتا. دراسات فى فقه اللغة. بيروت: دارالعلم للملايين.
- رضيف، شوقى. ٢٠٠٣م. تاريخ الأدب العربى، العصر الجاهلى. القاهرة: دار المعارف.
- فجال، محمد بن محمود. ٢٠٠٨م. أثر التدريس باللغة العربية الفصحى فى مستوى الناشئة.
- مجلة - الخطاب الثقافى. الرياض: كلية الآداب جامعة الملك سعود. العدد ٣.

www.culturediscourse.com

- الفراهيدى، خليل بن أحمد. ١٩٦٧م. العين. بغداد: لانا.
- قدور، أحمد محمد. ١٩٩٩م. مدخل إلى فقه اللغة العربية. دمشق: دار الفكر المعاصر.
- الكرمى، حسن سعيد. ٢٠٠٢م. اللغة نشأتها وتطورها فى الفكر والاستعمال. عمان: وزارة الثقافة.
- كريم زكى، حسام الدين. ٢٠٠٢م. العربية تطور وتاريخ، دراسة تاريخية فى نشأة العربية والخط وانتشارهما. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- الكفورى، جورج. لاتا. اللغة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها. بيروت: لانا.
- مدكور، أحمد على. لاتا. التربية وثقافة التكنولوجيا. القاهرة: لانا.
- النادرى، محمد أسعد. ٢٠٠٥م. فقه اللغة مناهله ومسائله. بيروت: المكتبة العصرية.
- وافى، على عبد الواحد. لاتا. علم اللغة. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- _____ ١٩٥٦م. فقه اللغة. القاهرة: لجنة البيان العربى.
- ويلز، جيمى. ٢٠١٠م. اللغة العربية. الموسوعة الحرة.

www.wikipedia.org

- ياسين، خليل. ٢٠٠٥م. اللغة العربية أسئلة التطور الذاتى والمستقبل. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- يعقوب، إميل بديع. ١٩٨٦م. فقه اللغة العربية وخصائصها. بيروت: دار العلم للملايين.
- _____ ١٩٨٥م. جبران واللغة العربية. بيروت: منشورات جروس.

